Issue 3063 Sunday 3/8/2008
الزمان السنة الحادية عشرة العدد 3063 الاحد 30 من رجب 1429 هـ 3 من اب (اغسطس) 2008م
Azzaman Arabic Daily Newspaper Vol/11 . UK

إتجاهات الإعلام في الأردن إلى أين؟

حريّة أوسع من برامج الصحفيين

عبدالله محمد القاق

عمّان

التقرير الذي اعده المجلس الاعلى للاعلام عن مقياس الحريات في الاردن كشف عن ان مستوى الحريات في البلاد وصل الى ما نسبته 3. 52 في المئة. حيث اكدت رئيس المجلس الأعلى للاعلام الدكتورة سيما بحوث ان الحريات لم تسجل اي تراجع بالنسبة المذكورة، فهذا التقرير يشير الى ان الاعلام الاردني ، ما زال بحاجة للمزيد من التطور ، والتقدم . بالرغم من توفر الامكانات التقنية والتكنولوجية خاصة في عصر العولمة . فضلا على ان هذا التقرير لم يتناول اية تجاوزات تذكر حيث كانت ضمن المعدلات المطلوبة.

والواقع انه بالرغم من دعوة جلالة الملك عبدالله الثاني بضرورة معالجة كل القضايا بروح بناءة وهادفة بعيدا عن معاول النقد الهدامة وعد جلالته ان سقف حرية الاعلام في السماء.. الا اننا ما زلنا نرى ان هذا المستوى من الحرية بحاجة الى دراسة وتوقف لمعرفة الاسباب الكامنة وراء عدم التطور الملحوظ لا سيما وان البيئة الاعلامية في الاردن شهدت قفزات نوعية لجهة التحقيقات والمتابعات وتخصيص صفحات خاصة للشباب . كما تفعل «الدستور» عبر ملحقها الهادف والناجح وذلك نتيجة لما فرضته متطلبات العمل الاعلامي في ظل هذا الفضاء المفتوح الذي يزخر بفيض هائل من الاخبار والتحليلات والمعلومات في كل لحظة ومن كل بقعة من بقاع العالم دون اي اعتبار للحواجز الجغرافية او الحدود الوطنية

والاعلام الاردني الذي نعتز به ، يتمتع بقدر كبير من الحرية . حيث لا تدخل من الجهات الحكومية . في توجهات الصحافة . او تحليلاتها او نقدها . واعرف ذلك جليا لانني عملت مديرا لتحرير هذه الصحيفة الوطنية وصرحها الاعلامي لمدة ثماني عشرة سنة خلت وادرك الدور الذي تقوم به عبر هذه الاصلاحات والاجراءات المتطورة التي قامت بها وغيرها من صحفنا لتطوير الخطاب الاعلامي واثراء مضامينه . وترسيخ حرية الراي والتعبير والارتقاء باداء الاعلام حتى يكون اداة فعالة في تعميق الوعي بالواقع الوطني والتعبير عن مشاغل المواطن وطموحاته خاصة بعد رفع الاسعار وتولد اعباء كثيرة ومتجددة على المواطنين كافة.

ولا اعتقد كما يتصور البعض من ان الاعلام الاردني «مرعوبا» او يسوده «الخوف» بل انه يتمتع بالشفافية في النقد والتوجيه . واسداء الراي والنصح حيال العديد من القضايا . غير انه ومن الملاحظ ان بعض الجهات الحكومية لا تستمع الى هذه الملاحظات والقيام بتنفيذها بل تواصل صم الاذان . لعدم الاستجابة الى شكاوى المواطنين . فضلا على عدم الاستجابة الى تساؤلات الصحفيين عن قضايانا الوطنية كما اشار الى ذلك الزميل الاستاذ محمد التل رئيس التحرير في مقال سابق له بالصحيفة خلال هذا الاسبوع. فالتعاون مطلوب من جميع المسؤولين تجاه صحافتنا الوطنية وان لا يقتصر ذلك على الصحافة الاجنبية او العربية . وان كان لها الشأن الواضح في اظهار الصورة المشرقة لوطننا وانجازاته في هذا الفضاء العربي . غير ان المطلوب الاهتمام بالشأن المحلي حتى تحقق القفزات النوعية الاعلامية الكبيرة في ضوء التعددية السياسية بغية دعم صحافة الوطن . والاحزاب وتوسيع الحوارات الفضائية عبر اجهزة الاذاعة والتلفاز ودفع المبادرة الخاصة في قطاع الاعلام . وبعث اذاعة ثقافية لمزيد اشعاع "الاردن" والتعريف باتجاهه الوطني والثقافي والاقتصادي وذلك للاسهام في وضع برنامج وطني لجمع وترقيم المخزون السمعي والبصري حفاظا للذاكرة الوطنية وبعث صندوق تآزر للصحافيين عبر نقابتهم بغية الارتقاء بقطاعي الاعلام والاتصال..

التقرير الذي اعده المجلس الاعلى للاعلام عن مقياس الحريات في الاردن كشف عن ان مستوى الحريات في البلاد وصل الى ما نسبته 52.3 في المئة

ولكن . نظرة جادة الى الاعلام في الوطن العربي . كما لاحظت من خلال مشاركتي في ندوة اعلامية عقدت في ابو ظبي بمشاركة قادة الاعلاميين في الوطن العربي مؤخرا يظهر للمرء ان قدرا من الانجاز الاعلامي قد تحقق ويصعب تجاهله على الصعيدين النوعي والكمي. غير انه ما انجز من هذا الحقل حتى الان لا يحقق الطموحات العربية . وهذا ما يجسد تقرير مقياس الحريات الاعلامية في الاردن لما يواجه اعلامنا العربي في تحديات متتالية في الحياة اليومية للمواطنين الامر الذي يتطلب ادخال تغييرات في بنية الاعلام العربي وخطابه وتحريره من تدخل السلطة في العالم العربي. واصلاح التشريعات والسياسات الاعلامية العربية . واطلاق حرية الراي والتعبير وترسيخ ثقافة التعدد والحوار واحترام الراي الاخر في وسائل الاعلام العربية وتحسين اكساب هذه الوسائل للقدرات المهنية والامكانات التقنية.

لقد احسن المجلس الاعلى للاعلام صنعا في اعداده هذا المسح للوقوف على الحريات الاعلامية في الاردن ادراكا من المجلس بوضع الخطط والبرامج الكفيلة بالنهوض باعلامنا الوطني وتطويره ليتصالح مع قيم العصر وليستجيب للتحولات التي تجتاح العالم من حولنا . لمواكبة ثورة المعلومات والاتصال في هذا العقد الاول من القرن الحادي والعشرين ، واحداث التحول في التجمعات العربية وتنميتها . ايضا بغية تقويم الواقع الاعلامي وتطوير اداته ومضامينه واستقصاء وظائفه المجتمعية في ضوء التوجهات الملكية الهادفة والبناءة للنهوض بالوطن وتحقيق المكتسبات عبر تعزيز العناية والاحاطة والاعلامية لاحراز النجاحات المطلوبة في هذا الاتجاه.

واذا كانت الحكومة جادة في تفعيل القطاع الاعلامي كما يريده جلالة الملك لاداء دوره الطليعي وتحقيق طموحاته . فاننا نعتقد ان توصيات المجلس الاعلى للاعلام التي استندت على استطلاعات ولقاءات عديدة في الوسط الاعلامي والمثقفين والمشرفين على قضايا حقوق الانسان يجب العمل على تنفيذها والاخذ بمقتضاها والتي تدعو الى تفعيل القانون رقم 27 الخاص بقانون المطبوعات والنشر لمزيد من الحريات العامة . وتفعيل قانون حق الحصول على المعلومات وحث المؤسسات الخاصة والعامة للتعاون مع صحافتنا الوطنية لان استمرار حجب هذه المعلومات من شانه ان يؤثر على المسيرة الاعلامية التي نتوق الى تحقيقها لجهة تعزيز الحريات الاعلامية وفقا لمتطلبات الاعلام الحديث والاتجاهات والممارسات العالمية المؤلفة والاسهام في دعم وتعزيز خصوصية الصحافة الالكترونية وتسهيل اعمال رجال الصحافة في الاحوال الطارئة.

ويمكن القول انه ليس من الطبيعي تناول الاعلام العربي بمعزل عن البيئة الواسعة التي يمارس فيها وظيفته ويستمد منها مدخولاته ويفضي اليها بمخرجاته.. غير ان هذه المقاربة لا تعني ايضا النظر الى العلاقة بين الاعلام والمجتمع على انها استاتيكية تتحكم في اتجاه خطي واحد بل ان هذه العلاقات كما لاحظت ذلك من الملتقى الاعلامي الذي كان لي شرف حضوره والاسهام في مناقشاته يمثل علاقة جدلية متبادلة التاثير لان الاعلام يتاثر بما يمر به المجتمع وينعكس عليه، ويؤثر في الوقت نفسه في حركة المجتمع وديناميه وايجاد الفضاء العام لهذا المجتمع المدني بمؤسساته المختلفة للتعبير عن مواقفها وارائها ومصالحها..

الحلقة الأولى

تصدع النظام القيمي العراقي وإنحرافاته

الصراع السياسي ينعكس على المعايير الإجتماعية

سعد العبيدي

لندن

يعيش الناس في المجتمعات البشرية وضعا يحاولون من خلاله تأمين قدرا من التوازنات المعقولة بين حاجاتهم العضوية والنفسية الأساسية في الحياة وظروف اشباعها، وبين ميولهم ورغباتهم واتجاهاتهم ووسائل تحقيقها. وهو وضع يمكن الوصول الى حدوده المقبولة نسبيا بالاستناد على عدة معايير: اولها ان يتلاءم الناس مع انفسهم فيحصلوا على تقدير لذواتهم ورضى عن وجودهم وثانيهما لعلاقاتهم بالاخرين من ابناء جنسهم افرادا كانوا ام جماعات فيحققوا قدرا من القبول والتفاعل اللازم لاستقرارهم وثالثهما لاساليب تعاملهم مع اجهزة ومؤسسات المجتمع وروافده فيبنوا انسهم واستقرارهم ومفردات عيشهم بواقع يقبلونه بدرجات متفاوتة

وهذه المعايير بمجملها تمثيل نفسي داخل الفرد لاثار المجتمع والثقافة وهو تمثيل يحدد استعدادهم للتصرف بشكل معين يلتزم بحدوده الناس او معظمهم فيشكل نظامهم القيمي الذي يعبر عن تنظيم هرمي تتسلسل فيه المثل العليا تبعا لاهميتها. نظام دعمت الاديان السماوية وجوده وعززته الاقوام والجماعات والهيئات والمؤسسات والمنظمات بمستوى قلل نسبيا احتمالات التباين والاختلاف والصراع في النفس البشرية، سعيا لان يعيش الانسان بقدر معقول من الرضى والاتزان. وهذا يعني انها اي القيم موجهات للسلوك ادركت البشرية معطياتها من خلال التفاعل الاجتماعي طويل الامد (عشرات او ربما مئات السنين) خضعت فيها للتاثير والتعديل والتحوير حتى وصلت الى مستوى من القبول او الرفض يدفع الغالبية الى الالتزام بها ذاتيا. وهي على هذا الاساس لم تكون القيم ثابتة بل عرضة للتغيير نتيجة التوصل الى معلومات جديدة وتبعا للظروف البيئية و الاجتماعية المحيطة. وتغيرها على الاغلب لا يكون حادا او سريعا او سلبيا في الحالات الاعتيادية وقد لا يكون ملحوظا بدرجة كبيرة لمن يعيشون مرحلتها الزمنية ودلالتها المكانية لانه ان كان سريعا سيكون مربكا ومثيرا لمقاومة العديد من ابناء المجتمع بسبب طبيعتهم الانسانية المحافظة، وان كان سلبيا سيدفع الى اضطراب وتوتر وعدم رضى العديد منهم. كما هو الحال بالنسبة الى المجتمع العراقي في السنوات الاخيرة.

النظام القيمي العراقي

العراق بلد عربي تجاور فيه العرب واقوام اخرى تنقلوا منذ الاف السنين سكانه الاصليين مثل الاشوريين والاكراد، و في مراحل لاحقة التركمان والارمن بشكل ملحوظ وبالاضافة الى استقرار تلك الاقوام على اساس المناطق اختلطوا ضمن المنطقة الواحدة في احيان ليست قليلة، فترى على سبيل المثال ارتحلت عشائر عربية من جنوب العراق بسبب خلافاتها مع عشائر اخرى واستقرت بين الاكراد في شماله وسكن بعض الاكراد وسط العراق وجنوبه على نفس الاسس ولاسباب غيرها، وكذلك ابناء القوميات والطوائف الاخرى، فعاشوا جميعا على ارضه بتفاهم وتقارب وتناغم معقول في الاعراف والاماني لمراحل طويلة اوجدت معايير وتقاليد واعراف ومن ثم قيما ترسخت عبر السنين لتساعد ابناء هذا المجتمع على العيش باتزان وامان وسلام مستوياتها مقبولة. واذا ما اردنا استعراض بعض من تلك القيم التي نظمت سلوك العراقيين وسهلت سبل عيشهم حتى وقت قريب لابد وان ننظر اليها من زاويتين: 1 . الزاوية الاولى ذات الصلة بمجموعة القيم التي تنظم علاقة الفرد مع نفسه والاخرين في مجتمعه ومنها على سبيل المثال: أ . التسامح بين السكان والقبول المتبادل بين الاهالي والاقوام التي كونت (رضية) للامن والاستقرار والبقاء بمشاكل اقل او باخرى لا ترقى الى المستوى الذي يحس فيه بعضهم بالرغبة في الانعزال او الابتعاد عن الاخرين او ان يحط قسم من قدر القسم الاخر او ان تنظر مجموعة الى اخرى كمواطنين من الدرجة الثانية، فكان (التسامح) قيمة لم تسهل سبل العيش بين القوميات المختلفة فحسب بل وكذلك بين الاديان والمذاهب التي تشكل طبيعة المجتمع العراقي حيث المسلمون والمسيحيون والصابئة والازيديون ومن ثم الشيعة والسنة و الاشوريون والارمن، وهكذا اقوام وطوائف ومذاهب متعددة سادهم التسامح و القبول في عيشها بمستوى من التجانس حتى الربع الاخير من هذا القرن. ب. وهناك الغيرة وحب الخير والعفو انساق قيم طالما احترمها العراقيون ودافعوا عنها لمرحلة طويلة من الزمن كانت كفيلة بصيانة الحقوق والوفاء بالعهد والالتزام بالكلمة والاخلاص في العمل وغيرها العديد من المجالات التي ارتبطت بها. عندما كان التاجر يبيع ويشتري بالكلمة فقط . ويلتزم الموظف بموعد دوامه بعيدا عن تدخل رؤسائه، ويلقي المدرس محاضرته كاملة دون رقيب، ويترك صاحب المحل محله مفتوحا وقت الصلاة ، ويتجرا فلاح ابداع كل ثروته البسيطة نسبيا عند المختار او الشيخ او الجار الميسور، وعندما تعود الناس تقويم الرجال على وفق التزامهم بوعد قطعوه وكلمة لم يتنازلوا عنها حتى وان جاءت نتائجها عكس ما يريدون، وعندما كان فعل الخير يقدم دون مقابل. ج . وهناك الصدق والوفاء والايثار قيم ارتبطت بعض جوانبها بالامانة والنزاهة والحكمة التي اعتز بها العديد من ابناء هذا المجتمع ودافعوا عن وجودها لمراحل متقدمة من هذا القرن، عندما كانت صفة الكذب مثلبة لا يقبلها عموم العراقيين، وان وصف بها احد قل تعامل الناس معه حد الرفض. والصدق قيمة لا تعني وصفا للعلاقة بالاخرين فقط بل تمتد الى الذات البشرية (الصدق مع النفس) تلك الخاصية التي تزيد من احترام الفرد لذاته ومن ثم احترام الناس له وتحول . في ذات الوقت . دون خيانة الاخرين او الوشاية بهم او التقليل من شانهم حتى وان كان الثمن المدفوع مغريا. وهذه كانت موجودة ايضا وبشكل ملموس منذ عام 1968 حيث الحث المستمر للاعوان والمنتسبين على الكتابة عن ما يتعلق بامن الثورة او عن الاشخاص المناوئين لها مرحلة اولى اعقبتها مرحلة بدات بعد عام 1979 بات الطلب من جميع الحزبيين فيها الكتابة حتى على الاقرباء والاصدقاء امرا شائعا على وفق فلسفة الرقابة الثورية. د. وهناك قيم اخرى وجهت سلوك الافراد ونظمت سبل تعاملهم مع الذين يعيشون معهم او بالقرب منهم مثل التواصل والتواد و التراحم و التكافل وغيرها قيم ساعدتهم على اجتياز المحن والازمات الاقتصادية والاجتماعية والبيئية، عندما كانت العائلة المعوزة في المنطقة او القرية على سبيل المثال تكفل عيشها نسبيا بجهود الاخرين رغم كون معظمهم من الفقراء بالمعنى التصنيفي للفقر حديثا، وعندما كانت صلة الرحم على مستوى يعرف الواحد ابناء عمومته واخواله حتى الدرجة السابعة او اكثر احيانا فيتنقل بينهم حرا دون توجس يطرح ما في جعبته ويعبر عن حاجاته دون خوف مشعر بالامان لمعظم الوقت، وعندما كانت علاقات الناس متسمة بالتواد الذي لا يقتصر على الاقارب ويمتد الى الاخرين في الشارع والحي والقرية و المدينة، علاقة يعتز بها الانسان و يدافع عنها الاغلبية ، يجد الواحد فيها نفسه و يقارن من خلالها وضعه، وبمقتضاها يدافع ابن القرية او المحلة عن ابنة محلته وقريته عند تعرضها لاعتداء او تجاوز، وفيها يساهم الجميع في عملية التقويم والتسيير الاجتماعي . وفي هذا المجال لا تقتصر القيم كموجهات للسلوك على الجانب الايجابي فقط فهناك في الجانب المقابل اي السلبي بعض السلوكيات بات البعض منها شائعا فحاول المجتمع التقليل من الاثر الضار لها جهد الامكان وذلك بوضع معايير قيمية لها افقدتها صفة القبول لدى غالبية مرتكبيها، اذ ان السرقة كانت في خمسينيات القرن العشرين و ما قبلها على سبيل المثال عادة ليست حميدة في المدن واكثر قبولا في الريف لكنها سلوك القرين تنفيذه بعض المعايير القيمية منها عدم تطاول السارق على الجار او على بيت في قريته ولا على اخر فيه نساء فقط ، و ان حدثت السرقة يمكن استرجاعها مقابل مبالغ بسيطة وكذلك في السرقة لا يتم اللجوء الى القتل الا نادرا. و من يخالف هذه المعايير يعزله المجتمع مع وصف له بالدونية. هـ . وبنفس هذا الاتجاه هناك قيم يتعلق البعض منها بالحياء و العيب وهي ليست قليلة فمن العيب ان يرتشي الموظف او المسؤول ايا كان موقعه و من العيب ان يحابي شخص شخصا اخرا في السلطة ومن العار ان يشي فرد باحد ابناء عشيرته او محلته ومن العيب ان يتجاوز فلاح على ارض الغير او على محصوله، و من تكثر عيوبه ترفضه المحلة او القرية والعشيرة فيرحل عنها او يجبر على الرحيل يجلى منها حسب التقاليد القيمية السائدة. 2 . الزاوية الثانية ذات الصلة بمجموعة القيم التي تنظم علاقة الفرد والجماعة باجهزة ومؤسسات المجتمع الرسمية وغير الرسمية منها على سبيل المناقشة: أ . الشعور بالتوحد والانتماء للجماعة كان التوحد مع الجماعة والانتماء الى الاسرة ثم العشيرة صعودا الى المدينة فالدولة موجودا منذ تاسيس الحكم الوطني في العراق عام 1921 وما قبله واستمر كذلك بنسب اقل بعد تموز عام 1958. لكنه ورغم المغالاة بالتوحد والانتماء للعشيرة والطائفة التي اثارت بعض انواع الصراع في النصف الاول من القرن الا انها ساهمت من الناحية الثانية بوحدة الفعل والكلمة وشدة الاحساس بالقوة في الظروف الصعبة، وعلى اساسها حقق العراقيون موحدين (في تلك الحقبة) مكاسب يصعب استيعابها او ادراك بعض جوانبها في ظروف السبعينيات ومابعدها منها ثورة العشرين وثورة مايس 1941 والاشتراك مع الفلسطينيين في حربهم ضد اسرائيل عام 1948 ومعارضة الاتفاقات غير المنصفة مع الغرب والاحتجاج على حرب السويس 1956 وغيرها.

ب . حب الوطن والشعور بالمواطنة للعراق حضارة عريقة ومجتمع موغل بالقدم ودولة لم تعد حديثة بالمعايير السياسية السائدة عاش على ارضه العراقيون مقتنعين بمستويات عيشهم نسبيا، متفاخرين بالانتماء اليه، متحمسين للبقاء بين حدوده لمرحلة من الزمن ليست قصيرة ساهمت في تكوين مشاعرهم الوطنية الايجابية او ما يسمى بالروح الوطنية قيمة ضمنت وحدة العراق واستمرار استقلاله وابتعاده عن التوتر والازمات نسبيا حتى السبعينات من هذا القرن. ج . وهناك قيم اخرى نظمت علاقة الافراد بالسلطة والمجتمع ادارة وقوانين ومؤسسات اضافة الى الوطنية مثل: الاخلاص بالعمل ولجنة العمل التي لو قارنا مستوياتها السابقة مع حقبة السبعينيات وما بعدها لوجدنا الفارق شاسعا يمكننا من وصف الاولى بالمقبول، وعلى نفس معيار المقارنة يمكن اضافة الحرص والنزاهة والرغبة في الانجاز والميل الى التعاون والدافع الى المبادرة معايير اعطت العمل بكافة اشكاله قيمة كان يمكن لها ان تنقل العراق خطوات عديدة الى الامام لو لم يحصل تعثر اعاقها في السنوات الاخيرة.

التمهيد للانحراف القيمي

لو تتبعنا ادارة المجتمع العراقي الحديث بشكل دقيق نجد ان هناك تحولات حادة نسبيا اثرت على واقعه الاجتماعي والسياسي والاقتصادي. ولكي لا نسهب في عموم تلك التحولات ذات الصلة بالاحداث التي جرت في الساحة العراقية، و لكي لا نعود الى التاريخ البعيد بالنسبة للاجيال الموجودة على قيد الحياة، ولكي نسهل عملية الادراك اللازمة لتصور الموضوع، سوف نبدا في تحليلنا للتغيرات مع منتصف عام 1968 اي مع بداية استلام حزب البعث العربي الاشتراكي للسلطة في العراق للمرة الثانية، و نتجاوز مرحلته الاولى عام 1963 رغم وفرة العديد من الشواهد التي تدعم وجهة نظرنا الخاصة به. وفي بداية تدفعنا الى تسليط الضوء على اولى خطوات الحزب في تجسيد صورة التشويه وتغليب فكرة الغاية لتبرير الوسيلة. عندما تعاون الحزب مع متنفذين في حكم عبد الرحمن عارف امثال عبد الرزاق النايف وكيل مدير الاستخبارات العسكرية العامة وعبد الرحمن الداود امر لواء الحرس الجمهوري انذاك في اطار المشاركة الجماعية لاقامة حكم ديمقراطي متعدد الاتجاهات في العراق وانقلب عليهم بعد ثلاثة عشر يوما على نجاح ائتلافهم منهيا ايامهم بالعمالة للامريكان والانكليز والتخطيط لحرف خط الثورة في اول عملية غش للعراقيين على الطريق الثوري لحزب ابان سيطرته الثانية. فوضع العراقيين امام الامر الواقع

واستمر الحزبيين بتاكيد ثورتهم البيضاء ويتهم المحافظة على نقاء بياضها. فحاوروا الشيوعيين وكسبوا بعض قادتهم الى الجبهة الوطنية والقومية التقدمية فاتاحوا الفرصة سانحة لتصفية البعثيين المعتدلين والعرب القوميين، والافراد الوطنيين ورجال الدين المسلمين و المسيحيين ثم انقلبوا على الشيوعيين في عملية تصفية لا مثيل لها، فاتقوا العراقيين المنصفين في حيرة من امرهم. وتوجهوا لمحاورة الثوار الاكراد فارسلوا لهم المتفجرات مع رجل دين (الاعظمي) حملها باجهزة خاصة لا علم له بطبيعتها وهو مبعوث للتمهيد الى تلك الحوارات، فتخلص البعث من شخص اراد له الموت ونجا الملا مصطفى البارزاني باعجوبة، وبقي العراقيون مشروخين من امر لم يفهموا دوافعه. وقرر منح الاكراد حكما ذاتيا في الوقت الذي توجه فيه الى شاه ايران متنازلا عن حدود العراق في شط العرب ثمنا لاتفاقية (الجزائر 1975) ذبح فيها الاكراد. واكد الحزب في مؤتمره القومي الحادي عشر عام 1977 وتوجيهاته بعد اتفاقية الجزائر المذكورة مع الشاه انها قد جاءت من منطلق القوة والندية، لكنه وبعد نكثه للاتفاقية مع بداية حربه ضد ايران اكد صدام في لقائه بالمجلس الوطني يوم 1980/9/19 ان فعلته تلك جاءت كون الجيش العراقي لم يعد يملك من الطاقات المدفعية عددا يتجاوز اصابع اليد. فوضع العراقيين امام كثير من التساؤلات التي لا اجابة لها الا في عقل صدام حسين متخذ القرار.

واعتاد العراق السوق المحلية بسلعة ما وشدة محدودة لتفرغها ثانية، وكان ذلك واضحا في السوق العراقية غير المستقر بعد عام 1968. اذ وفي الوقت الذي يختفي فيه البيض تتوفر اللحوم. وعندما تختفي الخضار يتوفر البيض حد التخمة. وهكذا حتى 1979 . 1980 سنة التمهيد للحرب مع ايران وما بعدها بقليل. عندما توفرت كل السلع لمستوى يفيض عن الحاجة وباسعار رخيصة. مما يدل انه كان عملا مقصودا اعتاد المسؤولون تمريره، واعتاد العراقيون تلقي تلك التبريرات ولا فرصة لديهم للتاكد من صحتها. ويظهر صدام حسين باجتماع مع اعضاء في القيادة او في دعوة عشاء مع بعضهم ويسمع العراقيون في اليوم التالي ان حادثة قد اودت بحياة احدهم او ان قرارا قد اتخذ باعفاء بعضهم او نقل بعضهم الاخر الى مناصب خارج العراق، فيتابع الجميع ما حدث بتوجس، كما حصل لاعضاء في القيادة القطرية مثل عبدالوهاب كريم الذي قتل بحادث سيارة وصالح مهدي عماش وعبد الكريم الشيخلي اللذين نقلا الى السلك الدبلوماسي سفراء في الخارج ثم توفي الاول في ظروف غامضة واغتيل الثاني في بغداد، واخرين غيرهم من المستويات القيادية الادنى. وتمجد القيادة قادتها في مناسبة ما وتعود لاتهامهم بالخيانة او التقصير و الانحراف في مناسبة ثانية فتعزلهم بطريقة مهينة او تستقلهم بانتخابات شكلية ونجد بعدها ان احدهم قد مات بشكل مفاجئ واخر اجبر على الانتحار وثالث وجد مقتولا بطريقة تثير الاستغراب. وتظهر القيادة الجانب المشرق من عملها الثوري السياسي بينما يمتلئ جانبها الثاني بانواع من الصراع الخفي بين اتجاهين متناقضين في القيادة يمثل الاول فيه احمد حسن البكر رئيس الجمهورية امين سر القطر بشخصيته الموسومة بالتروي والميل الى التجنب وسرعة الانفعال. ويمثل الثاني فيه صدام حسين النائب انذاك بشخصيته المعروفة بالقوة والحزم والمجازفة والشك وسرعة الغضب وعدم الصفح. انتهى بعزل الاول في تمثيلية ابقت العراقيين متفرجين خائفين من المستقبل المجهول. تلك كانت اهم التناقضات والاحداث التي ارهقت العقل العراقي ودفعته الى الحيرة والتشتت. واوجدت في نفس الوقت خصائص جديدة وعززت اخرى او زادت من فاعلية وجودها في المجتمع منها الخداع والمكر والتحايل والخيانة والقلب والمحاباة والاذلال الخ . وتلاشت او ضعفت اخرى كقوى موجهة مثل الاستقامة والنزاهة والصدق والاخلاص والايثار وقول الحق ..الخ . بالمستوى الذي كان كافيا لخرق النظام القيمي وتهيئته للانحراف سلبيا حتى عام 1979 لتبدا مرحلة جديدة تميزت في سنواتها الاخيرة بتصدع هذا النظام لمستوى يثير الريبة.

مرحلة الانحراف القيمي

انتهت مرحلة الصراع داخل قيادة الحزب عام 1979 بمجزرة ارتكبها صدام حسين راح ضحيتها ما تبقى من قيادييه المحسوبين على الاتجاه الاول او العقلانيين امثال عبد الخالق السامرائي وعدنان الحمداني ومحمد عايش وغانم عبد الجليل ومحيي الشمري ومحمد محجوب اعضاء في القيادة القطرية وعشرات غيرهم من المستويات القيادية الاخرى (اعضاء فروع وشعب في الحزب) واستلم على اثرها السلطة بطريقة اربكت العراقيين وارعبت البعثيين انفسهم، فكانت بداية التوجيه لحرف القيم والخطوة الاولى لتشكيل الانسان العراقي الجديد من وجهة نظره، الذي يريده خائفا على طول الخط ساعيا لتقديس الحاكم، لا يتحمل المسؤولية، مندفعا لتنفيذ ما يطلب منه دون نقاش، الاناني الذاتي ذا الشخصية المتناقضة، الجاهل بكل شيء الا ما يتعلق بمصالحه الخاصة، اي المنحرف قيميا. وقد تحقق له ذلك بنسب ليست قليلة من خلال تطبيقه الصارم لاساليب متعددة في الترغيب و الترهيب لم يتسن لرئيس اخر على مستوى العالم والعرب اجادة تطبيقها مثله في العصرين الحديث والقديم على حد سواء.

ومرحلة الانحراف القيمي اقترنت مع بداية الحرب مع ايران التي كان لنتائجها وادارتها النصيب الاكبر في ارساء هذا الانحراف سواء بتقليل فاعلية القيم الايجابية او بتقوية خصائص سلبية كونت في النهاية انساقا قيمية. وبهدف تاشير هذا الانحراف سوف نناقش اربعة انساق (على سبيل المثال) باتت ظاهرة للعيان في سلوك المجتمع العراقي ابان تلك الحقبة واستمرت الى ما بعدها هي:

1 . المادية النفعية

اعتقد صدام ان للانسان العراقي ثمنا حدده سلفا، وعلى اساسه منح الشهادة او الاستشهاد مرتبة لمن يقتل في حروبه العدوانية. ومن ينالها على وفق مقاساته يعطي ورثته المتوفين قدرا كبيرا من المال وسيارة خاصة وقطعة ارض سكنية (مكرمة)، حتى وجدت بعض العوائل الفقيرة نفسها قد تحولت مستوياتها المعاشية الى اخرى لم تكن تحلم في الوصول اليها حتى لو استمر الاب او الاخ الاكبر على قيد الحياة مئات السنين. عندها تناقصت قيمة الابوة والاخوة ومعنى الشهادة او حورت سلبا بالمقارنة الى قيمة المال التي تعززت بعد انعكاسها الاسرة اقتصاديا وتغيير موقعها اجتماعيا. وهي معادلة لم تتوقف تاثيراتها عند الحدود المذكورة بل تجاوزتها لتخدش انسانية الانسان وتقلل من تقديره لذاته واحترامه لها عندما اختلت كثيرا من الموازين وعلى اساسها:

أ . اندفعت بعض العوائل الفقيرة غير المتعلمة الى التمني جديا لاستشهاد احد ابنائها فرصة للغنى وكسب المال.

ب. سارع البعض الاخر من الاهل الى مراجعة دوائر الدولة في سباق محموم لكسب الثمن قبل ان تنتهي مراسيم العزاء وهم مختلفون على تقاسم الغنائم في كثير من الاحيان. ج. تجرا اباء وامهات مناشدة صدام والتوسط لدى الحزب لاخذ المزيد من ابنائهم الى محرقة الموت.

د. كابرت عجوز في اخفاء معالم حزنها وتفاخرت في حضرة الرئيس باستشهاد كل اولادها متمنية عودتها الى سن الصبا والشباب لتنجب اخرين تقدمهم فدية له في حربه المقدسة. هـ. غصت الكلية العسكرية بالمتقدمين حدا لا تستوعب فيه المزيد فلجات الدولة الى فتح كليتين اخريين لقبول شباب يتزاحمون على ابوابها وهم متجهين نحو الموت المحقق لا يدركون سوى المكاسب المامولة.

2 . الدونية وضعف الحياء يتحسس الانسان في تعامله مع مفردات الحياة ويعيش فيها ملتزما بضوابط تعلم من خلالها ان يؤدي عملا لانه مفيد وغير مؤذ ويتسم بالخير، ويمتنع عن اخر لانه مضر وغير مرغوب بالنسبة له وكذلك للاخرين من حوله. وفي اعمال على وجه العموم تدفعه استحياء الى ترجيح كفة الصحيح على الخطا وتغليب جانب الخير على الشر لتستقيم الحياة متوازنة مقبولة، لكنها ومع استمرار الحرب وكثرة خسائرها وسوء ادارة الدولة وجسامة اخطائها اضطر الكثيرون الى التجاوز على تلك فوجدوا انفسهم بعيدين عن اي التزام ، غير مكترثين بالقوانين والاعراف والتقاليد. لا يحس بعضهم انه الاهانة او بمعنى ادق يهضمها بسرعة ولا يعير اهتماما لانتقادات الاخرين وتجريحهم وبمعنى اشمل يتغاضى عنها بسهولة اكثر. وهي خصائص وان كان القليل من مستوياتها موجودا فقد قويت بتكرار الممارسات والتجاوزات الخطا وعدم الاكتراث لها او الاستحياء من نتائجها فكونت انساقا من القيم اخلت بالحياء العام واشعرت العديد بالدونية منها: أ . يسمع مسؤول كبير في الدولة والحزب شتما من رئيسه باسلوب لم يسبق ان سمعه في الشوارع والازقة، ولا يحتج او يستقيل او يترك العراق اضعف الايمان. ب. يتسبب قائد فيلق في الجيش بخسارة فادحة في معركة يخوضها تعد نكسة بالمعايير العسكرية ويلصقها سريعا بغيره ليعدمه علنا امام المنتسبين دون اعتراض او مساءلة. ج . يطالب وزير بدعوة عشاء وجلسة شراب او سهرة حمراء بعد منتصف الليل لقاء نقل موظف في وزارته او منح اخر ترقية لا يستحقها او ايفاد ثالث خارج العراق، ولا احد يعاتبه. د . يتجرا شخص عادي بادخال هداياه الى بيت المسؤول الحزبي اثناء النهار ولا احد من الاهل يمنعه.

هـ. يرسل موظف كبير او مسؤول حزبي مرموق زوجته الجميلة الى الرئيس تشكي خصومه او تطالب بالمزيد من مكارمه السخية دون حرج من النفس او عتب من الاخرين. 3 . الاستهانة بالوعي الانساني بدا الحزبيون الثوريون خطواتهم الاولى في التعامل مع المجتمع باعتقاد مسبق ان ما يقومون به او يؤدونه نابع من استقامة الثورة ورؤاها الصحيحة، وان اساليبهم في الرد السريع او تجاوز بعض الضوابط الادارية تاتي من منطلق حماية الثورة الفتية او لتخطي مرض الروتين الذي اصاب مجتمع ما قبل الثورة. وقد يكونوا معذورين بداية ثورتهم ولا شائبة كبيرة على اساليبهم تلك لاسباب نفسية وادارية. الا ان المشكلة تاتي بمرور الوقت عندما بقي اولئك الثوريون محتفظين بالسلطة على ضوء نظرية صدام التي تتاسس على انهم ضحوا من اجلها وبذلوا جهودا جبارة في الوصول اليها فلا بد والحالة هذه من بذل المستطاع للحفاظ عليها وباي ثمن! وبذلك اعتادوا اساليب غير سوية وتمادوا بتجاوزاتهم غير المنطقية فبدا صراعهم مع المجتمع العراقي وفيه ازدادت عدوانيتهم على غالبيته من ناحية وتنامى تمسكهم بالخطا «اعتزازا» بثوريتهم من ناحية اخرى. وعند هذه النقطة بداوا الاستهانة بامكانات الاخرين وبقدراتهم وارائهم اي الاستهانة بوعيهم. وهذا ما حصل فعلا ومؤشراته هي: أ . عندما سفروا الاف العراقيين بتهمة الاصول غير العربية مع معرفتهم الجيدة بالطبيعة السكانية والتداخل الحاصل فيها. ب. وعندما عينوا رؤساء وزارات ووزراء لا يصلحون نوابا لملاحظين في دوائر الدولة وهم على علم انهم سيخربون العراق بدلا من تعميره، اذ استوزروا على سبيل المثال للتعليم العالي والبحث العلمي وزيرا لا يصلح الا مراقبا في البلدية غاضا الطرف عن الاف الاساتذة المختصين، ولوزارة الصحة مهندسا لا يعرف ما يتعلق بصحته الشخصية غير انه بالمهنية وبالاف الاطباء الاختصاصيين المشهود بقدراتهم العلمية والادارية، ولوزارة الدفاع جنديا بدا حياته سائقا في احد البيوت القريبة من الرئيس، ثم فردا في حمايته لم تسنح له الفرصة لاستيعاب مفردات التدريب الاساس اسوة باقرانه الجنود ضاربا عرض الحائط معايير الضبط والتقاليد العسكرية وصفات الضباط القادة المعروفين بكفاءاتهم ووطنيتهم. ولرئاسة الوزارة قاطع تذاكر في احد المستشفيات دون ان يفكر بمسؤولية المنصب وصفات القادة السياسيين والاساتذة والعلماء والمختصين المقتدرين، ولنيابة مجلس قيادة الثورة فاشل في تحصيله لم يعمل كاتبا في دائرة حكومية او جنديا في القوات المسلحة. ج. وعندما هجروا مئات القرى وازالوا مواقعها من على الخرائط وهم يعلمون انها مؤشرة على خرائط الاتراك والانكليز وفي ذاكرة العراقيين. د. وعندما غيروا معالم الطبيعة وردموا الاهوار في الجنوب وهم عارفون اهميتها للثروة السمكية و الحيوانية وتاثيراتها على البيئة. هـ. وعندما ازالوا بساتين عامرة في بلد وديالى ومزارع في اماكن اخرى من العراق وهم مدركون تاثيراتها على الاقتصاد الوطني. و . وعندما باع رئيسهم صوريا لاولاده وزوجته واقاربه مزارع الدولة ومعامل القطاع العام والشركات الحكومية رغم معرفته احقية الشعب العراقي بالاستفادة منها. ز. وعندما نقش قائدهم اسمه على الطابوق المعمول لترميم الاثار وهو يدرك ان ما قام به اجراء مخالف لصفتها التاريخية والدينية. 4 . الاحساس بالعجز واليأس المستمرين. بعد خطوات الرئيس اعلاه عم الجهل قطاعات واسعة وتدنت مستويات المعرفة وبات القسر والتسلط والمال المكنوز و الولاء للحاكم الاساس في التعامل مع العراقيين بشكل عام.

ومع هذا التجهيل بدا الرئيس سياسة العصا للتخويف من بداخله نوايا ضد الظلم . والدينار للاستعباد وترغيب وشراء ذمة من يضمر سلوكه بالطمع والانتهازية، فجعل بفلسفته هذه لكل فعل تقديره الخاص ايجابيا لتعزيزه وسلبا لاطفائه. تقدير مدفوع مسبقا او سيدفع لاحقا، يفتش عنه الكبار قبل الصغار فزاد الانتهازيون بوجهتهم صوب الرئيس طمعا في رضاه وسعيا للحصول على مكارمه، وتناقص الجادون القادرون على الفعل لكثرة ما اعدم منهم او سجن او سفر او شرد او اجبر على البقاء متفرجا بعد احباطات زادت شدتها. فكان الاحساس بالعجز خلل لصالح الوصولية والانتهازية، والياس اضطراب في النفس البشرية بعد ان اصيب افراد المجتمع العراقي عامة والشباب خاصة بنوع من خيبة الامل ومشاعر المرارة، وبعد ان ادركوا حجم الحسابات الخاطئة للسلطة فكان سلوكهم سلبيا انسحابيا بعض نماذجه متمثلة بالاتي: أ . تكرار الاخطاء على مراى من المعنيين بها ولا يجهدون انفسهم بالمحاسبة عليها او حتى التنبيه اليها في كثير من الاحيان. ب. يقتل شخص امام حشد من الناس ولا يرغب احد منهم بالشهادة على ما حدث. ج. يستغيث جار لمصيبة حصلت ولا مغيث يستجيب لمعونته في الخلاص. د. يرى عديد من الاباء والامهات اخطاء ابنائهم ولا قدرة لهم بالاصلاح ويدركون تحطم مستقبلهم ولا يميلون حتى لمناقشته. هـ. تعي الغالبية ان وطنهم قد دمر وسيادة بلدهم قد انتهكت واقتصادهم لا امل قريب في اصلاحه والنفس مدفوع من امنهم وصحتهم ولا دافعية لديهم في المساهمة مع الغير للتفتيش عن الحلول. و. طائرات تقصف ومنشات تتهدم وثروة تهرب الى الخارج وعقول تهاجر مقهورة ولا رغبة في الاحتجاج. ز. اعدام الكثير من القادة العسكريين والمدنيين بسرعة لم تدع لهم مجالا للدفاع عن انفسهم، وعدهم شهداء بسرعة اكبر ولا ميل للاستفسار عن السبب. ان مشكلة العراق والعراقيين اكثر تعقيدا من التجاوز والتناقض والخلل الذي ذكر اعلاه على سبيل المناقشة والاستدلال والتي كونت بحكم التكرار والتعميم انساقا قيمية سلبية لانها: لم تتوقف عند حدود الثراء الذي اصبح مقياسا لعلو الشان في مجتمع الثمانينيات بل لانعكاساته على الشعور بالحيف والعدوان من جانب الكثيرين وبينهم المتعلمون ازاء المسؤولين والاثرياء الجدد. ولم يتوقف تدني مستويات المعيشة وغلاء الاسعار عند عدم القدرة على اشباع المطلوب بل ودفع الشباب الى القنوط والحيرة والاحساس بفقدان الانتماء والثقة بالدولة والعدالة الاجتماعية. عندما اصيب العديد من العراقيين باليأس والمرارة فتوقفوا عن السؤال عن جدوى العمل اكثر من الحدود التي تحفظ لهم حياتهم وتؤمن لهم عيشهم، فتلاشت عندها المبادرة والايثار وتحمل المسؤولية خصائص اعطت العمل والاخلاص فيه قيمة عليا في المجتمع ولحقبة من الزمن ليست قصيرة.

ولم يقتصر القسوة والتهديد والتنكيل اسلوبا للتعامل للحاكم مع قادته و وزرائه بل انتقل الى الاخرين في تعاملهم مع الادنى وظيفيا على وفق الية التقمص نزولا حتى العتبة الاخيرة من السلم الوظيفي. فادى الى تكوين اتجاهات جديدة بين الناس قوامها التعصب والتفكير المغلق والتمسك بالخرافات والنزعات المضادة للنقد الذاتي.

فبدات تتلاشى الالفة والمودة والتسامح وحسن النية وروح الجماعة والتضحية من قواميس الادارة العراقية تدريجيا واحست الغالبية بالضياع، وبدا الانحراف باتجاه السلب واضحا ملموسا وكان له الاثر الكبير في ادارة الفوضى والاضطراب وعدم الارتياح لشريحة ليست قليلة من المجتمع ومن ثم التمهيد للمرحلة اللاحقة الاكثر سلبا والاشد تاثيرا على العراق و العراقيين.

مرحلة الانحراف القيمي اقترنت مع بداية الحرب مع ايران التي كان لنتائجها وادارتها النصيب الأكبر في ارساء هذا الانحراف سواء بتقليل فاعلية القيم الايجابية او بتقوية خصائص سلبية كونت في النهاية انساقاً قيمية. وبهدف تاشير هذا الانحراف سوف نناقش أربعة انساق (على سبيل المثال) باتت ظاهرة للعيان في سلوك المجتمع العراقي ابان تلك الحقبة واستمرت الى ما بعدها